الجمهورية اليمنية
وزارة التعليم العالي
جامعة الأندلس للعلوم والتقنية

جامعة الأندلس
للعلوم والتقنية
Alandalus University For Science & Technology

٨

الفكـــر الإسلامـــي

قسم الدراسات الإسلامية

المستوى الرابع

أ. عبده الضبيبي

مع تحيات مركز براق للخدمات الطلابية بجامعة الأندلس

الفكر الإسلامي

إعداد :

د. أنور أبوزيد

م/٤

الفكر الإسلامي

إعداد : د. أنور أبوزيد

الحمد لله والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على رسول الله . وبعد

فهذه مادة مجموعة في قضايا من الفكر الإسلامي أعددتها على عجالة لطلاب المستوى الرابع حيث ضاق بهم الوقت وكاد أن ينصرم الفصل الدراسي وهم ما درسوها بعد ، فلما وكلت إلي استعنت بالله وأعددت هذه الكلمات راجيا من الله القدير أن ينفع بها الطلاب والدارسين .

فأقول وبالله التوفيق :

الفكر: إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول.

والتفكير: إعمال الإنسان لإمكاناته العقلية في المحصول الثقافي المتوفر لديه بغية إيجاد بدائل أو حل مشكلات أو كشف العلاقات والنسب بين الأشياء.

ومن خلال هذا التعريف ندرك أن الفكر ليس شيئاً مطابقاً للأحكام والمبادئ ، ولا مطابقاً للثقافة أو العقل أو العلم ، وإنما هو استخدام نشط لكل ذلك بغية الوصول إلى المزيد من الصور الذهنية عما يحيط بنا من أشياء وأحداث ومعطيات حاضرة وماضية وتوسيع مجال الرؤية لآفاق المستقبل.

وبناء على هذا فإن العالم غير المفكر ، فقد يكون المرء عالماً ولا يكون مفكراً وقد يكون مفكراً ولا يكون عالماً ، وذلك لأن الميدان الأساس للعلم هو الإلمام بالجزئيات ؛ أما ميدان الفكر فهو إبصار (الكليات) والاشتغال عليها.

فإذا تحدثنا عن الفكر الإسلامي فهو:

يتمثل فيما أنتجه المسلمون من علوم ومعارف واجتهادات على طر يق تفسير الإسلام وفهمه وشرح أحكامه. ونلحظ أن مصطلح " الفكر الإسلامي " غير مصطلح " الإسلام " فالإسلام هو الوحي الإلهي المنزل في الكتاب والسنة الصحيحة .

من قضايا الفكر الإسلامي :

1. الدين
2. اللغة
3. التاريخ
4. الغزو الفكري
   - أ- العولمة
   - ب- التنصير
   - ج- الاستشراق
   - د- العلمانية

أولا: الدين :

مناهج التعليم الديني في العالم الإسلامي

عرف العالم الإسلامي منذ وجوده الأول المدارس الدينية التي قامت بتفسير القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، صحيح أن ذلك بدأ بشكل فردي حيث كان الصحابة يقومون بنقل ما سمعوه عن النبي صلى الله عليه وسلم شفاهة ثم جاء التابعون من بعدهم لنقل ما أثر عن الصحابة ثم تكونت المدارس الفقهية واللغوية والأدبية ، وكان كل نشاط العقل المسلم يدور حول الإسلام والقرآن والسنة ، علماء التفسير والبيان والسنة والجرح والتعديل جميعهم كان نشاطهم العقلي والفكري يستلهم الإسلام ويدور حوله من أجل بيانه وشرحه والحفاظ عليه ، ولم تكن المدارس الفقهية أو اللغوية أو الحديثية أو البيانية ، ذات بيان ولها رسوم مقررة ، لكنها في أغلبها عمل تطوعي وأهلي ومجتمعي .

فأبو حنيفة مثلاً كان تاجراً لكنه متوافر على تأسيس مدرسة فقهية عريقة تعود بجذورها إلى الصحابي الجليل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان يحكم ويقضي ويجتهد ؛ هذه المدرسة الفقهية هي تلامذته الذين نقلوا العلم عنه « كأبي يوسف » و « محمد بن الحسن الشيباني » وغيرهم من المجتهدين والعلماء والقضاة، ثم تبلور في النهاية « المذهب الحنفي » الذي هو طريقة في المنهج لفهم الشريعة ،وقل مثل ذلك في المذاهب الأخرى كالشافعي وكذا « الإمام مالك » إمام أهل المدينة بلا منازع ثم الإمام « أحمد بن حنبل » ثم ظهرت جماعات من شذاذ الفكر الذين تلوثوا بالفكر اليوناني الوثني ، والأفكار النصرانية والخوارجية البدعية .

وكان ذلك في الواقع جزءاً من محاولة العدوان على **الفكر الإسلامي الأصيل** ، لكن هذا الفكر الشاذ ظل هامشياً ، وكان أهله محاصرين بحكم الشعور الإسلامي العام وبحكم علو الشريعة فكراً وسلطة . كما أن طبيعة العصر التي لم تكن تحقق التواصل ، وكان كل عالم يعيش وحده ، وهو ما جعل آثار هذا التفكير محدودة وليس لها واقع في حياة الأمة والناس ؛ لكنه مع نهاية القرن السابع عشر ومع هزيمة الدولة العثمانية عسكرياً أمام الجيوش النصرانية الغربية ، بدأت السفارات إلى الغرب ، وبدأ استقدام متخصصين في العلوم البحتة ذات الطابع العسكري بالأساس ، ولأول مرة جرى استقدام غير مسلمين للتخطيط والتدريس في الجيوش الإسلامية ؛ كما بدأ إرسال المبعوثين ، وهنا جرى أول اختراق حقيقي للعالم الإسلامي ؛ حيث تكونت البذور الأولى داخل المؤسسات الإسلامية والتي تحمل أشواقاً لعالم الأعداء ، وتؤمن أن تقليدهم في القيم والأفكار يمكن أن يحقق النهوض للعالم الإسلامي ، ثم صار الإيمان بهذا الفكر الوافد قيمة للعمل من أجل تحطيم العالم الإسلامي وليس النهوض به .

ومن المثير أن يكون الجيل الأول من العلمانيين في العالم الإسلامي قد اشتد عوده وقويت شوكته في مؤسسات الدولة العثمانية حاملة راية الإسلام في هذا الوقت بل إن السلاطين أنفسهم كانوا من الذين حملوا الترويج لهذه الأفكار منذ منتصف القرن التاسع عشر . نعم كانت هناك ضغوط غربية من الخارج ! لكن نمط التعليم الغربي اخترق أعلى مؤسسات الدولة كما حدث في الدولة الأموية والعباسية والتي جرى اختراق

مؤسسة صنع القرار فيها عبر تبني الخلفاء والملوك للمذاهب القدرية و الباطنية ، وتسلط على مؤسسة الخلافة ذاتها المعتزلة والمبتدعة . ثم انتقل الأمر من عاصمة الإسلام إلى مصر ؛ حيث رحل طلاب العلم إلى أوروبا في كافة الشُعَب لكن أخطرهم كان « رفاعة الطهطاوي » إمام أول هذه البعثات ، وجاء من بعده « محمد عبده » ومن قبله « الأفغاني » وتأسست مدرسة يمكن وصفها بالمصطلحات المعاصرة « مدرسة التفسير الاستعماري للإسلام » .

ومن المدهش أن يكون سعد زغلول ، و قاسم أمين ، و علي عبد الرازق وغيرهم تلامذة في هذه المدرسة التي كانت وثيقة الصلة بالإنجليز . لكن التعليم الإسلامي استرد عافيته بوثبة الأمة من أجل الدفاع عن دينها وإسلامها وتعليمها .

تدمير الأزهر :

وظل الأزهر في مصر المدرسة التي تحمي التعليم الديني ، وكان لها تقاليد صارمة علمية في الضبط والتحرير والإنتاج العلمي ، ثم ظهرت مدرسة « دار العلوم » التي تخرج فيها حسن البنا ، و سيد قطب ، ودار القضاء الشرعي التي تخرج فيها جاد الحق ، وكان القصد منها ضرب الأزهر ، لكنه ظل قوياً .

ثم جاء انقلاب يوليو وأصدر قانون « تطوير الأزهر » حيث فصل أوقافه عنه ، واستولت عليها وزارة الأوقاف ، كما جعل شيخه تابعاً لوزير يساري في هذاالوقت هو كمال رفعت ، وأدخل التعليم المدني فيه مثل الطب وغيره بقصد تخريج كوادر دعوية لمواجهة التبشير .

وهنا أصبحت المؤسسة الأزهرية التي هي بالأساس مؤسسة أهلية علمية لها أوقافها المستقلة وتمارس الاجتهاد ، ولها تقاليدها بعيداً عن يد الدولة أصبحت في قبضة الدولة ، أي نزعت من الأزهر كل أسلحته ، وصار شيخ الأزهر الذي كان يمثل ضمير الأمة كلها مجرد موظف لدى المؤسسة الحاكمة لا يخرج قيد أنملة عما تطلب منه رغم أن العلماء في التقاليد الإسلامية هم بالأساس مراقبون للسلطة وضابطون لسلوكها.

ثم مضى التطوير قدماً حالياً حيث جرى تقصير مدة الدراسة في الفترة الثانوية

لتصبح ثلاث سنوات بدلاً من أربع مثل الثانوية العامة ، وتم إلغاء دراسة المذاهب الفقهية تماماً والتي هي حافظة لطريقة فهم الشريعة وهي ناقلتها عبر الأجيال ، ثم منع الطلاب الراغبون من خارج الأزهر من الالتحاق به وكانوا يمثلون دماءاً فيه لتجديد روح الأزهر وشبابه ، ثم رفع سن القبول في المرحلة الابتدائية، وتضاءلت دراسة القرآن الكريم ؛ كما حوصرت الكتاتيب ، وضعف مستوى طلاب العلوم الشرعية والقسم الأدبي ، رغم إن إصلاح الأزهر يكون عن طريق دعم القسم الأدبي والتخلي عن القسم العلمي تماماً للتعليم العام فدعاة الأزهر هم خريجو العلوم الشرعية بالأساس ؛ وكل ذلك يجري في إطار ما أطلق عليه : «علمنة الأزهر » أي نزع صفة كونه معهداً لتدريس العلوم الشرعية وتخريج متخصصين في العلوم الشرعية الإسلامية .

وخالف الأزهر عبر شيخه الحالي أعز تقاليده في تحمل الاختلاف الفقهي ، فحوصر المخالفون لشيخ الأزهر وحوكموا وعزلوا وشردوا في الآفاق ، وظن شيخه أن المركز الذي منحته السلطة له يتيح لـــه أن يـــستخدم سلطة الإكراه في مواجهة خصومه رغم أن سلطة العلماء بالأساس هي سلطة معنوية لا تستند إلى الإكراه ؛ والمتأمل في الاجتماع الإسلامي يلاحظ بوضوح أن السلطة السياسية كانت تعمد إلى فرض الرأي الواحـــد عبر القوة بينما كان العلماء يعمدون إلى إعطاء الفرصة لكافة الآراء الاجتهادية لا يحتكرها عالم واحـــد أو مجتهد واحد ؛ وموقف الإمام مالك رحمه الله في هذه المسألة واضح حين عرض عليه المنصور أن يجعـــل من « الموطأ »دستوراً فقهياً موحداً للأمة لكنه رفض .

كان كل ذلك يتم في إطار علمنة ثقافة الأمة وتحطيم هويتها عبر مصطلحات مثل « تجفيف الينابيع » ؛ فبما أن الأزهر رصيد لتخريج علماء الدين فليجفف ، وطالما أن الطلبة الذين يرغبون في الالتحاق به من خارجه يشتبه في أن يكونوا متطرفين فليمنعوا ، وهكذا .

وطالما أن مادة الدين في التعلم العام يمكن أن تكون مصدراً لتدين الشباب فلتجعل مادة للثقافة المشتركة مع غير المسلمين حفاظاً على الوحدة الوطنية . لم يكن كل ذلك تحت قصف النيران الخارجية أو في إطار خطة مفروضة من الخارج ، بل كان من يقومون بكل هذا ينكرون أن يكون للخارج أي تدخل في فرض أجندتـــه التي تريد أن تفرض التبعية الثقافية على عالمنا الإسلامي وخاصة دول القلب والمركز فيه ، لكـــن أحـــداث سبتمبر جاءت لتقلب الأمور رأساً على عقب .

ما بعد سبتمبر والقصف الأمريكي لمناهج التعليم :

كما هو معلوم أن العقل الأمريكي ذي الطابع البراجماتي (النفعي) لا يملك القدرة على الغوص في الأمور لفهمها وتحليلها وهو يعتمد منهج التجريب – فيما ينهيه إليه– أقرب نظرة له أو أقرب طرفة عين عقليـــة ، فإن ثبت خطأه جرب غيره ، وهكذا ...

وصناع القرار فيه اتهموا « بغير بينة » ما يطلق عليهم « فوكوياما » الأصوليين ، وفي ظن الأمريكيين أن هؤلاء الأصوليين إسلاميون درسوا علوم الشريعة ؛ وإذن فالمدارس الدينية في باكستان هي التي أخرجـــت طالبان والمدارس الدينية في السعودية هي التي تخرج أصوليين ، ومناهج التعليم الديني هي التـــي تحفـــظ للإسلام قوامه ؛ إذن يجب محاصرة هذه المدارس والمناهج ، والضغط من أجل ذلك ، ومن هنا فما كانـــت تقوم به الحكومات المحلية في السابق على استحياء أصبحت أمريكا رأساً هي التي تقوم بذلك ، وهي تقوم به بعصبية شديدة وانفعال وقلة خبرة تحت تأثير ضربة سبتمبر ، وهي تجهل أنها تدخل فـــي قلـــب الوجـــود الإسلامي وفي قلب

هوية الأمة ، وهو ما يعد عدواناً قاسياً وخطيراً يصل إلى حد الحرب .

بيد أن أمريكا لم تكتف بذلك ، بل إن مسؤولين كباراً في وزارة الخارجية

اقترحوا تمويل أئمة المسلمين الذين يعارضون الإرهاب على حد زعمهم ويؤيدون

الحرية الدينية .

وقالت وكيلة وزارة الخارجية للشؤون العالمية أمام اجتماع « لجنة الحريات الدينية» المعنية بمتابعة الحالة الدينية في العالم وفق الرؤية الأمريكية :

« يتحدث كثير من المسلمين عن معارضة الإرهاب لكن ذلك غير كاف ، وعلينا أن نواصل القيام بالمزيد لحث المسلمين في الخارج على التحدث علناً عن قيم دينهم التي تعلي من شأن الحياة ، وأوضحت أنه « يجب التفكير خارج الإطار التقليدي وتوظيف وسائل خلاقة للنهوض بالحرية الدينية ، وهنا علينا التفكير في تمويل علماء مسلمين وأئمة وأصوات أخرى للمسلمين » وزادت توضيحاً بالقول :

« علينا أن نضم المزيد من علماء المسلمين إلى برامج التبادل الثقافي والأكاديمي التي تمولها أمريكا ، إننا نريد الوصول إلى جمهور أكبر في المجتمعات الإسلامية ؛ وذلك بهدف دعم أصوات التسامح في الدول الأخرى وعودة الناس للتسامح » .

أي أن أمريكا تريد من المسلمين « إعلاء القيم الدينية التي تحافظ على قيمة الحياة » ويستبطن هذا المعنى إلغاء كل ما يتصل بالقتال في القرآن الكريم والسنة النبوية باعتبار أن آيات القتال في التصور الأمريكي تهدد حياة الآخرين ، كما أنإعلاء قيمة الحياة تعني منع العمليات الاستشهادية في الأراضي المحتلة ضد الصهاينة باعتبار أن اليهودي في التصور الأمريكي هو إنسان محفوظ الدم والحياة .

وأفكار التسامح تعني إلغاء كل ما يتصل بمفهوم الولاء والبراء والتمايز على أساس العقيدة ؛ فهم ينظرون « للإنسان » من وجهة نظرهم باعتبار الإنسان الغربي ابن الحضارة الأمريكية والغربية أو التي تصله بها آصرة الثقافة والدين كاليهود .

وهم يروجون لفكرة « الإنسان الكوني » أي الإنسان الذي لا يشعر بأي انتماء خاص لدين أو لوطن أو لعقيدة أو لقضية ، وحين يكون إنسان « العالم الإسلامي » أو الإنسان الشرق أوسطي « كما يزعمون بهذه الحالة فإنه سيكون نهباً وعبداً لكل ما يطلب منه .

وتبقى العقيدة الإسلامية والدين الإسلامي هي حصانة العالم الإسلامي في مواجهة الهيمنة الأمريكية الثقافية .

إن أمريكا تسعى اليوم عبر التدخل في مناهج التعليم الديني على وجه الخصوص للتأثير على الأجيال القادمة للأمة الإسلامية ، أي أنها تعمل للسيطرة على المستقبل في العالم الإسلامي ، وهي تشعر أنها لا يمكنها السيطرة على هذا المستقبل إلا عن طريق السيطرة على عقول شبابه وأبنائه ، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق العبث بمناهج التعليم الديني خاصة .

إن الأمة الإسلامية بحكم صفتها هي أمة روحها هو الدين وتاريخها وثقافتها ونشاطها كله بالأساس حول الدين ، ونزع دينها أو التلاعب به من قبل قوة خارجية

هو خطر لا يمكن الاستهانة به أو التقليل من شأنه ؛ لأنه خطر وقصف موجه إلى العقل والروح ، هو قصف موجه إلى الجذور ، وهو خطر يستهدف اغتيال الأمة ، ونحن نثق أن الله « غالب على أمره » وحافظ دينه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر : 9) وأن هجمة أمريكا ومكرها سيمتد إليها ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (الأنعام : 123) . لكن الأمة كلها بحاجة إلى تدبر طبيعة الحرب التي تواجهها : إنها حرب صليبية ، الإجلاب فيها بالخيل والرجل من جانب ، وبالغزو الفكري والثقافي لهدم قواعد الأمة وأسسها من ناحية أخرى .

أمريكا وتغيير خصائص الشعوب :

دارسو السياسة الخارجية الأمريكية يعلمون أنها تعتمد على المدرسة السلوكية وما بعد السلوكية ، وهي في جوهرها تقوم على ما يعرف بـــ « الخصائص القومية للشعوب » أي تغيير الطبيعة القومية والنفسية للشعوب ، وقد نجحت في ذلك مع ألمانيا و اليابان بعد الحرب العالمية الثانية ، وهي تشن حرباً نفسية على العالم الإسلامي عن طريق محاولة تغيير خصائصه ؛ لكن العقيدة الإسلامية هي التي تحفظه وتقف به صلباً أمام موجات العولمة الحديثة كما وقفت أمام موجات الحرب الصليبية والتبشير والاستشراق والاستعمار « الاستخراب » ومن ثم فالحرب الحضارية بين أمريكا والغرب من جهة والعالم الإسلامي من جهة أخرى هي حرب عقدية حول الأساس وحول القضايا الثابتة ، وهي حرب تضرب في الجذور ، وسوف تسعى أمريكا بشكل أساسي لتجنيد العملاء ، لكنهم هذه المرة من قلب المحتل الذي تريد أن تحطمه كما قال « زويمر » من قبل : « الشجرة لا يقطعها إلا أحد أبنائها » فالعملاء لن يكونوا يساريين أو علمانيين ؛ لكنهم سيكونون من علماء الدين والمتخصصين في العلوم الشرعية من المفتين والقضاة والرؤوس في علوم الإسلام ، وأمريكا سوف تمنح وتعطي وتغري وتخاتل وتبدو كالمسيح الدجال الذي يتلاعب بظواهر الأشياء ويقلب المسميات ويصور للناس أنه يملك الجنة والنار ، وهي تقول : « من ليس معنا فهو ضدنا » ؛ لذا فالأمر خطير ؛ وليحذر كل امرئ وخاصة العلماء من فتنة أمريكية عمياء ، القابض فيها على دينه وعلى الحق كالقابض على الجمر .

إن الدهشة سوف تلجمنا إذا علمنا أن مؤسسة تسمى « كير » تتبع المخابرات المركزية الأمريكية هي التـــي تقوم بالتخطيط للمناهج في وزارة التربية والتعليم المصرية .

والدهشة ستمسك بتلابيبنا إذا علمنا أن وفد الـ F.B.I قد التقى شيخ الأزهر ، ووفود الكونجرس تلتقيه للاطمئنان على مناهج الأزهر .

ونورد ما قاله وزير التعليم المصري في حوار مع إحدى الصحف قال :

« المناهج الدينية تتم صياغتها بإشراف شيخ الأزهر وهو رجل لا يستطيع أحد التشكيك في استنارته وتقدمه ، وهو يعلن مسؤوليته دائماً عن كل ما يدرس من تربية دينية داخل وزارة التربية والتعليم ، وشارك بنفسه في دورة تدريبية لمدرسي التربية الدينية بالوزارة ؛ وبالفعل تم تغيير الكثير من هذه المناهج حتى يمكن صياغة عقل الإنسان الجديد غير المتطرف ؛ وذلك لأننا نعتقد أن العقل هو جوهر الإسلام وعشرات الآيات تحض على العقلانية وإعمال العقل والفكر وقبول الآخر والتسامح والأخلاق والتكامل والرحمة » وهذا بالفعل هو ما تريده أمريكا ، ونحن نندهش ونتساءل : وهل كانت الوزارة قبل هذا الوزير ومنذ وجدت وزارة التعليم في داهية عمياء بلا عقل ولا فكر ولا قبول الآخر ولا التسامح معه ؟ وهل كان الطلاب لا يعرفون كل هذا ؟ لكنها الأجندة الأمريكية الجديدة ، حين يرتبط العقل والتسامح بها فإنها تعني عقلاً خاصاً وتسامحاً خاصاً تجاه أعداء هذه الأمة وتجاه تاريخها .

وماذا يريد بقوله : الإنسان غير المتطرف ؟ والجواب هو : الإنسان الأمريكي ، هو الإنسان الشرق أوسطي الذي لا يشعر بالهوية ولا يعترف بالقيم وإنما يؤمن فقط بالمصلحة إنسان البراجماتية والنفعية .

وتدرك أمريكا ويدرك الغرب معها أن التعليم في أوروبا كان المدخل للسيطرة على الفرد وعلى الأمة ، وكان أساس بناء الدولة القومية العلمانية في أوروبا ؛ ففكرة العلاقة بين الهيمنة والتعليم في الغرب أساسية ؛ لذا فهم يحاولون الهيمنة والسيطرة والإخضاع عبر التعليم ، عبر تغيير مناهج التعليم الديني في مصر والسعودية وباكستان و اليمن ؛ وعبر القضاء على المدارس الدينية والجمعيات الخيرية التي تدعمها .

ويغري أمريكا بهذا صداقتها لهذه البلدان ؛ لأنها تحاول توظيف هذه الصداقة عبر ترويج فكرة السلام ، في اختراق وتسميم هذه المجتمعات الإسلامية .

وهنا فالخطر داهم على الأمة حكاماً وشعوباً ؛ ولذا يجب على الكل أن يستيقظ ويرفض المساومة على الثوابت أو التلاعب بالعقائد ، وعلى الجميع أن يعرف أن روح الأمة أقوى من كل شيء ، والحمد لله أن هذه الهجمة الأمريكية واكبت في الأمة حياة ووعياً مؤثراً ، وأجيالاً جديدة حية تدرك وتسعى .

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف : 21) .

ثانيا : اللغة :

لا شك أن اللغة وعاء الفكر ؛ ولذا كانت عناية السلف عظيمة بالحفاظ على لغة القرآن الذي نـــزل بلـــسان عربي مبين ، وازداد حرصهم ذلك بعد دخول الأعاجم

في دين الله وإقبالهم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكان منهم من لا يعرف الألفاظ في أصلَ اللغة ولا قانونها ، كما كان منهم وهذا هو الغالب والأخطر من لا يعرف مراد الشارع بالألفاظ ؛ لأنه لا يعرف سنته في الخطاب ولا يحيط بجميع النصوص الواردة في الموضوع محل الفهم أو البحث .

ومن جهة أخرى اهتم بعض أهل البدع باللغة العربية ، فبرز منهم أكثر من عالم لغوي ؛ لأن الوجوه اللغوية كانت طريقهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه وبابهم إلى التأويل عندما أعياهم الاستدلال على بدعهم بنصوص ثابتة في القرآن والسنة ، فأخذوا يبحثون في ضعيف اللغة وشاذها ومرجوحها عما يشوشون به على الأصول الصحيحة التي لم تستسغها عقولها أو أهواؤهم .

وعندما **انفتح الفكر الإسلامي** على فلسفات الأمم الأخرى ونتاجهم العقلي دخلت على المسلمين أفكار جديدة عبر ألفاظ عربية أخذت مفاهيم محدثة أضيفت على المعنى اللغوي الأصلي أو انحرفت به ، كالجوهر، والفرد، والمُحْدث، والقديم ...

وهكذا رأينا أن **المعركة الفكرية بين أهل السنة وسائر الفرق** كانت معركة لغوية في جانب كبير منها .

وبالأداة نفسها (اللغة) ظهرت مفاهيم جديدة كالعلمانية والوطنية والقومية والتقدمية والرجعية في عقول المسلمين العرب في العقود المتأخرة ؛ فلقد كان من رواد النهضة العربية الحديثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي بعض المتضلعين في اللغة والباحثين في علومها من النصارى وأصحاب الزيغ من تلاميذ المستشرقين ، أمثال : بطرس وسليم البستاني ، وناصيف وإبراهيم اليازجي ، ولويس شيخو ، ولويس معلوف .. بل حاول بعضهم عكس هذا الوعاء الفكري تماما من خلال دعوات مشبوهة إلى استبدال العامية بالفصحى في لغة الكتابة كما رأينا عند أحمد لطفي السيد (أستاذ الجيل كما يسميه العلمانيون) ، أو استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية كما رأينا عند سلامة موسى ، وهذا ما فعله أتاتورك لقطع صلة تركيا بالعروبة والإسلام .

وإضافة إلى الأهداف السابق ذكرها للاهتمام باللغة ظهر في هذه المرحلة الزمنية وما بعدها التوجه إلى الطعن في الإسلام من خلال أبحاث لغوية ، كما في

كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين ، وعند أمين الخولي ومحمد أحمد خلف الله في كتاب : (الفن القصصي في القرآن الكريم) ثم في كتابات التلاميذ المعاصرين أمثال سيد حامد النساج ، ونصر أبو زيد .. وغيرهم .

كما ظهر التوجه أيضا إلى امتلاك ناصية الأشكال التعبيرية الجديدة : كالمقال ، والقصة ، والرواية ، والمسرحية لاستخدامها أداة لإيصال الأفكار الجديدة ؛ فلمعت أسماء : كفرح أنطون ، وجورجي زيدان ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ . وبتحويل أعمال أمثال هؤلاء إلى أعمال فنية (إذاعية وسينيمائية وتلفزيونية) انتشرت الأفكار التي أرادوا الترويج لها على نطاق واسع بين عوام الأمة وخاصتهم .

وما زال هذا الأسلوب (استخدام اللغة لتقرير أفكار مستهدفة) متبعا ومؤثرا حتى وقتنا الراهن حيث أرادت جعل القومية رابطة يجتمع عليها مجموعة من البشر تذوب فيها جميع الروابط الأخرى ومنها الدينية بحيث تعلو القومية وتقدم عليها وكأنها عقيدة أخرى ، فإذا قدمنا عليها أي ولاء آخر كالإسلام مثلا لم يصبح لهذه القومية أي معنى عندهم ، وهذا ليس كلامنا ولكنه تقرير روادها وهكذا فإن **القومية عند دعاتها** تجمع بالإخاء المسلم مع النصراني واليهودي أو مع البوذي والهندوسي إذا كانوا يعيشون في إطار واحد لقوم أو قطر ، ولكنها تفرقه عن أخيه المسلم وقد يعاديه إذا كان من قوم آخرين .

كما كان في تنظير المفكرين القوميين العرب وخاصة في الشام حيث نحا هذا المنحى ؛ رغبة في قطع الروابط مع المسلمين غير العرب (العثمانيين) ؛ حيث كانوا جميعا منضوين تحت لواء دولة واحدة في إطار الرابطة الإسلامية .

كما أن فكرة القومية بهذا المعنى مضادة بطبيعتها وليس بواقعها فقط للإسلام الذي جاء فيه : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[الحجرات : 10] أيا كانت أجناسهم وقومياتهم ، وفيه أيضا : ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾[المجادلة : 22] .

لقد سعى هؤلاء لجعل اللغة شاهد زور على أن الفكر القومي له القوامة على الفكر الإسلامي .

ثالثا : التاريخ :

تزداد الحاجة يوماً بعد يوم إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، بعد أن عاث به فساداً المستشرقون والمستغربون على حد سواء ، وذلك لأسباب نذكر بعضها :

1- إن الأمة التي لا تقرأ تاريخها ولا تستفيد منه في حاضرها ومستقبلها لهي أمة مقطوعة منبتة ، فالماضي ليس مفتاحاً لفهم الحاضر فحسب ، بل هو من أسس إعادة صياغة الحاضر .

وقد استخدم القرآن الكريم قصص الأمم السابقة للتأثير في نفوس الناس ،
قال تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وحَصِيدٌ ﴾[هود : 100] ،
وقال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ يَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[يوسف : 109] .
يقول المؤرخ ابن الأثير : (وأنه لا يحدث أمر إلا وقد تقدم هو أو نظيره فيزداد الإنسان بذلك عقلاً ويصبح لأن يقتدي به أهلاً).
والذي يشاهد ما تفعله بعض الدول الآن من استعانتها بعناصر أجنبية وتفضيلهم على الأقرباء والدين واللغة يدرك طرفاً من نظرية ابن خلدون في أن الدول إذا تمكنت أبعدت عصبيتها الأولى واعتمد ت على عصبيات مجلوبة من الخارج ،
كالمحاولة التي قام بها الخليفة المعتصم العباسي لتقوية دولته عندما جلب الأتراك فتحولوا إلى شوكة في حلق العباسيين .
2 – إن ما كتبه علماؤنا قديماً ، وإن كان عملاً ضخماً ، قد حفظوا لنا فيه كل جزئيات وتفاصيل تاريخنا الإسلامي وجمعوا روايات كثيرة جداً ، إلا أن هذه الروايات تحتاج إلى غربلة وتمحيص لأن فيها الصحيح والضعيف بل والموضوع ،
وقد ذكروا لنا مصادرهم حتى يعذروا ولا نحملهم المسؤولية ، وما كتبه المُحْدثون
إنما نسجوا فيه على منوال المستشرقين الذين اهتموا اهتماماً زائداً بالتاريخ الإسلامي لغاية في أنفسهم وكان لهم منهج خاص في البحث والتنقيب ، ولهم منهج في تفسير النصوص أكثره تهويل ، يأتون فيه بالغرائب والعجائب ، وذلك بقصورهم عن فهم اللغة العربية وفهم حركة التاريخ الإسلامي ، بالإضافة إلى النية المبيتة لتشويه التاريخ الإسلامي ، وأعجب بهم المستغربون وأصبحت المعادلة عندهم : ما دام هؤلاء يتقصون هذا النقصي في تفسير النصوص ومدلولاتها فلا بد أن يكونوا محايدين .
ووقع المسلمون بين قديم ينظر له باحترام وإنصاف ولكنه لم ينق من الروايات المكذوبة وبين ما كتبه المستشرقون وتلامذتهم وفيه ما فيه من دس وافتراء متعمد .
3- استغل أصحاب الاتجاهات المنحرفة بعض الروايات الضعيفة أوالموضوعة في الموسوعات التاريخية القديمة أو تحليلات المستشرقين المشوهة ، استغلوا هذا في المدارس والجامعات وغرسوا في نفوس الشباب المتعلم أن تاريخنا لا يعدو أن يكون أحداثاً دموية يتلو بعضها بعضاً وأنه إذا استثنينا الخلفاء الراشدين ، بل إذا استثنينا فترة أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – فكل تاريخنا صراع على الحكم وترف وفساد في القصور .. وعظمت المصيبة بأمثال هؤلاء ، والمتعلم الناشئ يتأثر بما يقال له ، وأصبح الشباب في حيرة واضطراب ، فعندما يسألون عن كتب التاريخ لترشدهم إلى الحقيقة لا يجدون أمامهم إلا كتب الموسوعات الكبيرة التي من الصعب على أمثالهم الرجوع إليها ، أو الكتب المعاصرة وفيها من الجهل والتشويه الشيء الكثير ، وبذلك أيضاً عظمت التبعة على المسلمين وبدأ المخلصون في التصدي لهذا التيار فكتبت دراسات حول هذا الموضوع ، وصنفت كتب في التاريخ الإسلامي ، هي أفضل بكثير مما كتب في المرحلة السابقة ،

ولكن كتابة التاريخ الإسلامي هي أكبر من هذه الجهود ، ولا تزال بحاجة إلى توضيح وبيان ، وصياغة جديدة ، والدخول في التفصيلات بعد التعميمات .

التفسير الإسلامي للتاريخ :

يلح القرآن الكريم – لمن تدبره وعقله – على أهمية السنن التي وضعها الله سبحانه وتعالى لهذا الكون ، ولتسير فطرة الإنسان عليها ، وهذه السنن صالحة ، صلاحاً شاملاً لأنها غير مقيدة بالزمان أو المكان ، ويعتقد المسلمون أن تاريخ الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته ما هي إلا تفاصيل لجزئيات هذه السنن وعرّفنا الله سبحانه من الأسباب الكلية للخير والشر.

إن حوادث التاريخ هي من صنع الإنسان حقيقة ، ولكنها تجري حسب حكمة الله وعدله ومشيئته المطلقة في توجيه شؤون البشر ﴿وتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران : 140] ، كما أن الإنسان عندما يفعل الخير أو الشر له مشيئة حقيقية بها يحاسب ويجازى والله خلقه وخلق مشيئته ، قال تعالى : ﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[الروم : 41] .

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام : 44] .

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد : 11] .

والله سبحانه وتعالى يحب دفع الشر في الأرض وهو من سننه الكونية ، كما قال : ﴿ولَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾[البقرة : 251] .

ولكن هذا الدفع يجب أن يقوم به أولياؤه المتقون ، فيجاهدون في سبيله ، فإذا لم يقوموا به لم يندفع ، وعندئذ تتحول الحياة البشرية إلى مستنقع آسن من الشرور .

وإذا كان الغرب ومؤرخوه قد تنقلوا بين نظريات كثيرة لتعليل أحداث التاريخ ، ما بين التأكيد على الجانب الغيبي ، وما بين بروز النزعات المادية كالتفسير القومي [8] أو التفسير المادي ، كما ظهر التفسير التشاؤمي عند (اشبنجار) ونظرية التحدي عند (توينبي) ، هذه النظريات وإن كان في بعضها شيء من الحق إلا أن التفسير الإسلامي للتاريخ يختلف ابتداءً عن النظرة الغربية لأنه ينطلق في الأصل من تكريم الله للإنسان ، وأن الله خلق هذا الإنسان لعبادته ، وسخر له كل ما يحتاجه لعمارة هذه الأرض ، وأرسل الأنبياء وأنزل الكتب ليكون أبلغ في العذر ، وهذه الحياة الدنيا مؤقتة ، والحياة الأخرى هي الباقية ، وأوج الحضارة عند المسلم هو عندما يحقق ما يريده الله منه ، وما خلق من أجله ، وعندئذ يكرم بالاستخلاف في الأرض ، وليست قمة الحضارة بقدر ما يمتلكه من الأشياء وأدوات الترف والغنى والرفاهية والتدمير .

إن محور التفسير الإسلامي للتاريخ هو : إن ما يقع من الحوادث إنما يخضع لسنن إلهية (كونية أو دينية) ، وإن ظاهرة التدين أصيلة قوية في الإنسان بالفطرة التي خلقه الله عليها ، فهو يتجه إلى الدين ولكن شياطين الإنس والجن يجتالونه عن هذه الفطرة فيغير ويبدل .

ومن هذه السنن :

1 – إن الدولة الكبرى أو الحضارات لا تقوم إلا بدين أو ببقايا دين .

2 – سنة دفع الله الناس بعضهم ببعض ومداولة الأيام بينهم ليتبين الحق ويظهر الخير .

3 – زوال الأمم وهلاكها بالترف والفساد وعدم إقامة العدل .

4 – الناس مسؤولون عن رقيهم وانحطاطهم .

5 – استحقاق النصر للمؤمنين .

وسنتكلم عن كل واحدة من هذه السنن بشيء من التفصيل :

أولاً – من الملاحظ أن محل الدراسة التاريخية في القرآن الكريم ليس المقصود بها شعباً معيناً أو دولة معينة بقدر ما هو مقصود : ما هو دين هذه الأمة وما هي عقيدتها ؟ وما موقفها من الرسل والأنبياء ؟ فالتركيز على (الملة) باعتبار أن ظاهرة التدين هي الأصل في الإنسان قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة/62] ، فالحديث هنا عن (ملل) معينة وليس عن شعوب أو دول ، وعندما يذكر القرآن الحوادث التي وقعت لبني إسرائيل يسردها دون ترتيب زمني ؛ لأن المقصود أن هذه الأمة (يهود) لها صفات معينة ، وهذا واضح من سيرتهم مع نبيهم موسى –عليه السلام– ، وقد امتن الله على اليهود المعاصرين لفجر الدعوة الإسلامية بنعمة أنعمها على آبائهم ، وذلك لأنهم أمة واحدة ، وقصص الأنبياء في القرآن هي قصة الصراع بين التوحيد وبين الوثنية والأمة الإسلامية يقابلها الأمم النصرانية أو المجوسية .. وقد فرح المسلمون في مكة ببشارة القرآن لهم بانتصار الروم على الفرس ، لأن الروم أهل كتاب فهم أقرب من المجوس وتركيز القرآن علي هذه الناحية يؤكد أن الدين هو العامل الفعال في تكوين الحضارات والدول الكبرى سواء كان هذا الدين حقاً كما أنزله الله سبحانه وتعالى أو قد حرف وبدل ، المهم هو أن فكرة التدين أو التطلع الغيبي هي التي تعطي الحماس والجد والعاطفة التي تحتاجها الدول في إبان تأسيسها ، وقد خلق الإنسان متديناً بفطرته ، بالعهد الذي أخذ عليه ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ بل لا يوجد شعب مهما كان موغلاً في الهمجية إلا وتطلع إلى الغيبيات . يقول المفكر الجزائري مالك بن بني : (فالحضارة لا تنبعث – كما هو ملاحظ– إلا بالعقيدة الدينية ، وينبغي أن نبحث في كل حضارة من الحضارات عن أصلها الديني ، وكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس

الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية) ، ويقول توينبي : (والتحول الديني كان حقيقة مبدأ كل شيء في التاريخ الانكليزي). ومن كلام ابن تيمية رحمه الله – بعد كلام عن الأنبياء وفضلهم على البشرية : (ويقال هنا : إنه ليس في الأرض مملكة قائمة إلا بنبوة أو آثار نبوة وأن كل خير في الأرض فمن آثار النبوات ولا يستريبن العاقل في الأقوام الذين درست النبوة فيهم كالبراهمة والمجوس) ، كما يقرر ابن خلدون المعنى نفسه حيث يقول : (الدول العامة الاستيلاء ، العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق). ونحن يمكننا أن نضيف على كلام ابن خلدون : أو (بفكرة) تبلغ عند أصحابها مبلغ التقديس للديانات ويتفانون في تطبيقها ، وهذا من ناحية نفسية لا من ناحية تاريخية ، وهذه الحضارات والدول وإن قامت ابتداء على الدين إلا أنه مع تطاول الزمن والإسراف في الحضارة يبدأ الفساد ينخر فيها ولابد إذن من مبدأ الدفع الذي سنه الله سبحانه وتعالى .

ثانياً – إن مبدأ الصراع بين الأمم ليظهر الخير ويخفف من الشر هو من أعظم السنن الكونية ، قال تعالى : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ [الحج : 40] ، وقال تعالى : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ ﴾[البقرة : 251] . فالأرض تفسد إذا طال فيها مكث الطواغيت وحكوماتهم الفاسدة ، ولم يقم من يجاهدهم ويدفع فسادهم ويريح العباد والبلاد منهم ، والله ذو فضل على الناس أن جعل هذه السنة من سننه الكونية حتى تتطهر الأرض بين كل فترة وأخرى ، كما أن هذا الصراع يرمي إلى تقوية المؤمنين ، فيزداد نشاطهم ويحققوا ما يريده الله منهم ، يقول ابن تيمية شارحاً الآية السابقة : (وقد بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فهدم صوامع النصارى وبيعهم فساد ، إذا هدمها المجوس والمشركون ، وأما إذا هدمها المسلمون وجعلوا أماكنها مساجد يذكر فيها اسم الله فهذا خير وصلاح ، فالله سبحانه يدفع شر الطائفتين بخيرهما كما دفع المجوس بالروم والنصارى ثم دفع النصارى بالمؤمنين).

ويقول أحد المؤرخين الغربيين (هوايتهد) : (إن صراع العقائد والمذاهب ليس كارثة بل فرصة) . إن المنطقة العربية – وبلاد الشام خاصة التي بارك الله فيها – من مراكز الصراع الكبرى في العالم حتى يتبين الحق والباطل ويتمحص أهلها ويأخذوا أجر الدفع والجهاد في سبيل الله ، قال تعالى ذاكراً بلاد الشام : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾[الإسراء : 1] وقال : ﴿وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾[الأعراف : 137] ، وبنوا إسرائيل أورثوا مشارق ومغارب بلاد الشام ، وقال تعالى ذاكراً إبراهيم – عليه السلام – : ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾[الأنبياء : 81] ، وإبراهيم إنما نجاه الله ولوطاً إلى أرض الشام . وعن أبي الدرداء قال : سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول : « يوم الملحمة الكبرى فسطاط المسلمين بأرض يقال لها : الغوطة ، وفيها مدينة يقال لها : دمشق خير منازل المسلمين يومئذ ». وعن خريم بن فاتك الأسدي قال : (أهل الشام سوط الله في الأرض ينتقم بهم

ممن يشاء ، كيف يشاء). كما ورد في الحديث الصحيح : « إذا أحب الله قوماً ابتلاهم ». وعلى أرض الشام ومصر قام الصراع بين المسلمين والصليبيين ، فكان لهم فضل رد هؤلاء الغزاة عن كل بلاد المسلمين ، وعلى أرض الشام هُزم التتار لأول مرة بعد زحفهم المدمر على بلاد الإسلام . وفي العصر الحديث ابتليت باليهود وبكل الحاقدين على الإسلام ، فهي في صراع مستمر حتى يميز الله الخبيث من الطيب ويتخذ منهم شهداء ، والذي ينظر بعين البصيرة إلى تجمع اليهود من كل أنحاء العالم ، يشعر وكأنهم يساقون سوقاً إلى هذه المنطقة ، بل استطاعوا جرّ أمريكا وأوربا وراءهم لتصبح من المراكز الحساسة جداً في السياسة العالمية . يقول الدكتور زين نور الدين زين : (ربما ليس هناك بقعة أخرى في الدنيا كلها وقعت حروب على أرضها وعبرت شعوب ثم عادت لتعبر ثانية فوق أرضها كمنطقة الشرق الأدنى ، فهذه المنطقة كانت أبداً ساحة معركة للجيوش ، كما أنها كانت معتركاً للفكر). ويقول الدكتور ج . س . بادو : (مادام هناك ثمرة شهية متدلية من شجرة فإن قطافها سيغوي أحد الناس وهذا هو السر في تورط منطقة الشرق الأدنى في الشؤون العالمية).

والمنطقة ليست ثمرة شهية للغرب والشرق من ناحية الثروات الطبيعية فقط بل لأنها مركز الصراع الحضاري فالغرب يعتبر (إسرائيل) امتداداً حضارياً له ، وهو في صراع مع المسلمين فلابد إذن من مساعدة اليهود . إن كثرة ذكر القرآن لليهود وتخصيصهم بالذكر هم والنصارى في سورة الفاتحة ليدل على أن الصراع بين المسلمين وبين هاتين الفئتين سيكون صراعاً طويلاً ، كما يدل على أثر هاتين الفئتين في الأحداث العالمية ، ومن يقرأ الكتب التي تتحدث عن أثر اليهود في السيطرة على كثير من المؤسسات والدول واستخدامهم – في سبيل ذلك – المال والنساء والصحافة والواجهات من جمعيات وأحزاب ذات لافتات براقة ، من يقرأ هذا يشعر بأنهم يتلاعبون بالشعوب والأمم السادرة في غيها وضلالها ، ومع أن هناك صيحات تحذير من هنا وهناك ممن عرفوا حقيقة مكرهم وتخطيطهم من وراء الستار ، وأنهم هم سبب الكثير من الأزمات ، الاقتصادية والسياسية ، إلا أن هذه التحذيرات لم تعرقل أو تؤخر من
سيطرتهم . وأما الدول التي تسمي نفسها بالاشتراكية فهي ليست إلا ثمرة من ثمار اليهودي (ماركس) ومن ثمار المادية الأوروبية . إن التفسير القرآني للتاريخ بمدافعة الأمم بعضها بعضاً هو أعم وأشمل من
نظرية (التحدي) عند المؤرخ الانكليزي (توينبي) التي هي صادقة في جانب من جوانب التاريخ الإنساني ، فإن تعرض أمة لخطر خارجي أو داخلي قد يظهر من طاقات أبنائها ما كان خامداً ، فإن وقت الأزمات والمصائب هو الوقت الذي يفكر فيه الناس بالتغيير ، ولكن أين هذه النظرية من تفسير القرآن الذي هو عملية مستمرة وصراع دائم بين الخير والشر ليتغلب الخير أو يخفف من الشر .

ثالثاً – ومن سننه تعالى في البشر أن الأمم التي تبطر معيشتها ، وتعيش في الترف وتنهمك في الملذات ، وتقارف الآثام والذنوب ، لابد أن يصيبها العقاب إن آجلاً أو عاجلاً وسواء كان عذاباً مادياً حسياً أو عذاباً معنوياً . قال تعالى : ﴿وإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا

القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً □[الإسراء : 16] فهلاك القرى إنما يجيء بعد وجود طبقة المترفين الذين يفسقون فيها ، والأمر هنا هو أمر قدري كوني ، ولا داعي لتأويلها بأن الله سبحانه وتعالى أمر المترفين بأن يقيموا حدود الله فلم يقيموها فحق عليهم القول ؛ لأن المترفين في الاصطلاح القرآني قد فسدت فطرتهم فلا يستحقون هذا التكريم. وقال تعالى : □ولَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ولَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً □ [فاطر : 45] .

وقال : □وقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ولَتَعْلُنَّ عُلُواً كَبِيراً * فَإِذَا جَاءَ وعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وكَانَ وعْداً مَّفْعُولاً □[الإسراء : 4-5] . وقال تعالى : □وكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً □[الإسراء : 17] .

□ولَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِوالأَرْضِ □ [الأعراف : 96] .

وقد ثبت في الصحيحين لما نزل قوله تعالى : □قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ □قال – صلى الله عليه وسلم – : « أعوذ بوجهك » □أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ □قال : « أعوذ بوجهك » □أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ □قال : « هاتان أهون ». فعذاب التفرق والتحزب هو من العذاب الذي يصيب المسلمين كما يصيب غيرهم ، بل ربما كان في المسلمين أشد ، لأن هذا من عذابهم في الدنيا ، وقال – صلى الله عليه وسلم – : « ما ظهر في قوم الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله ». وما هذه الأمراض الفتاكة التي تظهر بين الفينة والأخرى وتستعصي على الطب والأطباء ، إلا من عذاب الله لهذه الأمم التي انغمست في حمأة الرذيلة وما هذا القتل المستمر بين الناس لا يدري القاتل والمقتول فيم يقتتلان ، وما هذه الزلازل المدمرة في لحظات وثوان ، إلا من عقاب الله الظاهر والخفي .

يقول ابن تيمية مطبقاً هذه القاعدة على التاريخ الإسلامي : (وقد أصاب أهل المدينة من القتل والنهب والخوف ما لا يعلمه إلا الله ، وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين أحدثوا أعمالاً أوجبت ذلك ، وكان على عهد الخلفاء يدفع الله عنهم بإيمانهم وتقواهم) . وجاء في (سير أعلام النبلاء) تعليقاً على الأحداث التي جرت في مكة بين جيش يزيد بقيادة الحصين بن نمير السكوني وبين جيش عبد الله بن الزبير :

(دخل عبد الله بن عمرو المسجد الحرام والكعبة تحترق حين أدبر جيش حصين بن نمير ، فوقف وبكى وقال : أيها الناس ، والله لو أن أبا هريرة أخبركم أنكم قاتلوا ابن نبيكم (الحسين بن علي) ومحرقوا بيت ربكم لقلتم : ما أحد أكذب من أبي هريرة ، فقد فعلتم فانتظروا نقمة الله فليلبسنكم شيعاً ، ويذيق بعضكم بأس بعض). وأما ما حل بالأمم السابقة بسبب فساد أخلاقها فهو معروف مشهور

وأكبر مثال على ذلك ما حل بالدولة الرومانية ، فقد سقطت أمام جحافل الزاحفين عليها وكأنها لم تكن.

والفساد والبطر الذي تمارسه أوربا في هذا العصر حدا بالعقلاء منهم إلى إرسال صيحات الإنذار والخطر .

رابعاً – ومما هو قريب من السنة السابقة : أن الناس هم المسؤولون عن رقيهم وانحطاطهم ، قال تعالى : □إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ □

[الرعد : 11] ، فالتغيير يجب أن يبدأ من الإنسان ، والله سبحانه وتعالى ييسر له السبل التي يريدها والأمة التي تعشش فيها الأفكار الميتة والأنانية والبغض والحسد ، وقد ركنت إلى الكسل والخمول ، هذه الأمة لا يمكن أن تنتج تقدماً أو شيئاً يذكر بل إن حكماً علمانياً يمكن أن يستمر ويزدهر بالاتحاد والعدالة أكثر من حكم أدعياء الإيمان إذا ما ركنوا إلى الأخلاق المنحلة وإلى الفوضى والعصيان.

لقد نقل الإسلام العرب نقلة بعيدة غيرت ما بأنفسهم تغييراً شاملاً وجذرياً ، وكل الأفكار القاتلة من عصبيات وخرافات وعقائد ساذجة مضحكة ، كل هذا تغير بعقيدة التوحيد الواضحة الشاملة لكل مناحي النفس الإنسانية وعندئذ استطاعوا تغيير ما بأنفس الأمم الأخرى ، لقد بدأ التغيير بكلمة □اقرأ □ورجل الفطرة الذي لم تفسده الفلسفات الباردة أو الترف المردي ، إن تدبر القرآن الكريم والسنة النبوية كفيلان بتغيير ما بالنفس من أمراض ليعود رجل الفطرة إلى دوره في السير على هدى الله ويحقق ما خلق من أجله . وإن تغيير ما بالنفس ليس عملية صعبة فهذه أمم في العصر الحديث استطاعت أن تنهض من كبوتها بسبب وجود الإنسان الذي اكتملت فيه الشروط النفسية للتغيير ، وليس بسبب وجود المادة وتراكمها ، وأكبر مثال على ذلك ما فعله الشعب الألماني الغربي بعد الحرب العالمية الثانية ، وكيف عمر بلده بعد أن أصبح خراباً بسبب الحرب ، ورجعت ألمانيا كأقوى الدول الغربية اقتصادياً ، وصدق فيهم ما قاله الصحابي عمرو بن العاص عن أجدادهم الروم : (وأسرع الناس إفاقة بعد مصيبة) ، وعندما يغير المسلمون ما بأنفسهم سيأخذ الله سبحانه وتعالى بأيديهم ، لأن هذا وعده ومن أصدق من الله قيلاً .

خامساً – في صراع الحق والباطل سينتصر الحق في النهاية وإن انتفش الباطل وعربد في البداية ، وهذه سنة نلاحظها في تفاصيل الحياة اليومية كما نلاحظها في الأحداث الكبار ، قال تعالى : □أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وِمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ □[الرعد : 17] .

يقول ابن قتيبة شارحاً هذه الآيات : (هذا مثل ضربه الله للحق والباطل يقول : الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه ، فإن الله سيمحقه ويبطله ، ويجعل العافية للحق وأهله ، ومثل ذلك مطر أسال الأودية بقدرها □فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً □أي عالياً على الماء كما يعلو الباطل تارة على الحق ، وكذلك المعادن إذا دخلت الكير يوقد عليها فيعلوها مثل زبد الماء ثم قال : □فَأَمَّا

الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً □أي يلقيه الماء عنه فيتعلق بأصول الشجر وجنبات الوادي ، وكذلك خبث الفلزّ يقذفه الكير ، فهذا مثل الباطل □وأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ □فهو مثل الحق).

والمسلمون هم أحق الناس بهذه السنة وإذا تأخر عنهم فلأمر ما في نفوسهم ، أو لأنه لم تتمحص صفوفهم وكيف لا ينصرهم الله سبحانه وهم أولياؤه ، وهل يستوي المجرمون والمسلمون ، وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : «نصرت بالرعب مسيرة شهر » وهذا الكلام ليس من باب □نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وأَحِبَّاؤُهُ □، فهذه لا يفكر فيها المسلم ولكنها من باب وعد الله الصادق بنصر المؤمنين عندما يكونون مؤمنين فعلاً ، قولاً وعملاً ، وليس من قبيل الأماني ويجب أن يعتقد من تأخر عنه النصر والتمكين أنه ما تأخر إلا لسبب أو لأسباب ، فلا يلومن إلا نفسه ، ولا يضع المعاذير لنفسه ويلقي بالتبعة على غيره .

في ضوء هذا التفسير الإسلامي للتاريخ يجب أن نفهم تاريخنا ، فهو في جانب من جوانبه جزء من التاريخ العام للبشرية ، ينطلق عليه ما ينطلق على الأمم الأخرى من سنن نشوء المجتمعات وارتقائها ، أو انحطاطها وتخلفها ، ويخضع للعقوبات الإلهية التي تحل بأهل المعاصي والذنوب وأهل البطر والترف .

بعض خصائص هذه الأمة :

أولاً : إن أولى هذه الخصائص أنها أمة انبثقت فجأة ومن خلال (كتاب) وهو القرآن الكريم ، الذي شكلها وصاغها أثناء تنزله لمدة ثلاثة وعشرين سنة ، ومن خلال القدوة محمد صلى الله عليه وسلم وجيل الصحابة الذي رباه في كنفه ، هذه الأمة لم تمر بأدوار وأحقاب متطاولة حتى استقرت على ما هي عليه وأنتجت حضارة هي الحضارة الإسلامية وإنما نشأت في بيئة عذراء ، ومن قبائل هي أقرب للفطرة من الشعوب المجاورة ثم صاغها الوحي فخرجت زرعاً □يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ □[الفتح 29] هذه النبتة الأصيلة قد استعصت على مؤرخ كـ (توينبي) أن يجد لها حلاً أو تفسيراً فحاول متعسفاً أن يرجعها إلى ما أسماه بـ (المجتمع السوري) أو العنصر الآرامي الذي بلغ أوجه في عهد سليمان (عليه السلام) واعتبر أن المجتمع الإسلامي هو وليد هذا المجتمع (السوري) هذا التحليل العجيب قد يعذر فيه توينبي لأنه لا يريد أن يفهم كيف تتكون أمة وتنشأ من خلال (كتاب) ، بينما نرى نحن أن هذا النشوء السريع والقوي الذي تشكل بالوحي ورجل الفطرة هو الذي يفسر لنا أسباب الصراع الطويل بين مفهوم الدين كما فهمه العربي

في الحجاز والجزيرة العربية يومها ، وكما فهمه العلماء المحدّثون بعد ذلك ، وبين الذين التقطوا مخلفات الفرس واليونان حين دخلت على هيئة (علم الكلام) و (الصوفية) و (أبهة الملك) وزاحمت بساطة الإسلام وصفائه ، وهو الذي يفسر لنا تلك المحاولات الماكرة والمستمرة من أعداء الإسلام للانحراف به يمنة أو يسرة مرة باسم التطور والحداثة ، ومرة باسم التعقل ، وأخرى باسم التأويل ، لأنهم يريدون أن يتلاعبوا بالقرآن كما تلاعب النصارى بأناجيلهم ويغيظهم كثيراً أن يبقى الإسلام حتى اليوم واضحاً كما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- كما يغيظهم أنه لا توجد أمة من أمم الأرض اليوم تستطيع أن تكون مستقلة في عقائدها وتشريعاتها وكل أنماط حياتها مثل الأمة الإسلامية ، فهي تملك شخصية مستقلة في كل شؤون حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وهذا ما لا يريده الغرب والشرق المتسلط على الشعوب ، المغرور بقوته وعلمه ..

والذين يزعمون أنهم يملكون شخصية مستقلة مثل الهنادكة الذين يقدسون غاندي ، هم في الحقيقة أسرى الحضارة الغربية ، يقول توينبي : (ومن ثم نجد غاندي ينشئ حركة سياسية ذات برنامج غربي مداره تحويل الهند إلى دولة مستقلة برلمانية ذات سيادة)

والحقيقة أن الثقافة الغربية تهيمن على أكثر شعوب الأرض ولا ينجو منها إلا من يملك مقومات الثقافة المتكاملة والتصور الشامل المخالف لثقافة الغرب والذي لا يتحقق وجوده إلا في الإسلام .

ثانياً : وهي أمة غير متقطعة ومستمرة بإذن الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فهي لا تضعف في جانب إلا وتقوى في آخر ولا تهزم في ناحية إلا وتنتصر في ناحية أخرى . واستقراء التاريخ الإسلامي يؤيد هذا ، فعندما ضعفت الدولة العباسية ظهر السلاجقة في خراسان وأنقذوا الخلافة من سيطرة الباطنيين ، وكان من آثارهم بعدئذ السلطان العادل نور الدين محمود الذي تصدى للهجمة الصليبية على بلاد الشام ، كما ظهر الغزنويون في الأفغان والهند ، وكان مؤسس الدولة محمود الغزنوي من السلاطين الذين يحبون العلم والجهاد في سبيل الله ، وعندما ضعف الإسلام في المغرب وفي مصر ظهر صلاح الدين الأيوبي واستعصت القسطنطينية على الأمويين ولكنها استسلمت للعثمانيين الذين حققوا بشارة الرسول -صلى الله عليه وسلم- بفتحها ، وعندما أخرج المسلمون من الأندلس كان الإسلام قد انتشر بواسطة الدعاة في وسط أفريقيا وفي جزائر إندونيسيا .

وإذا كانت قوى الشر قد تكالبت على المسلمين في العصر الحديث ، وكالت لهم ضربات شرسة ، فإننا نرى كيف يظهر الإسلام ويقوى في أماكن لم يكن

أحد يتوقع أن يظهر فيها ، كل هذا تحقيقاً لدعاء الرسول -صلى الله عليه وسلم- كما ثبت عنه أنه قال : « سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها ».

ثالثاً : وهي أمة متجددة موعودة بأن يقيض الله لها دائماً علماء أو أمراء يجددون لها أمر دينها ، يقيمون العدل وينشرون العلم ويبعثون السنن كما جاء في الحديث : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ».

وفى الحديث الآخر : « مثل أمتي مثل المطر لا يدري آخره خير أم أوله »

وقد ظهر من العلماء والأفراد في كل عصر ما يحقق هذه البشارة كالأئمة الأربعة ، وأئمة الحديث كالبخاري ومسلم وأبي داود وأمثالهم من أئمة الفقه والاجتهاد في كل عصر كما ظهر فيها من الخلفاء والملوك من يجاهد في سبيل الله ويحب العلم ويقيم العدل ، ومن يراجع كتب التاريخ والتراجم فسيجد هذه النماذج دالة على ما ذكرنا ، وإذا كان العلم قد ضعف في القرون المتأخرة فقد وجد من السلاطين من كان همه الدفاع عن العالم الإسلامي وحمايته من الأخطار الخارجية ، وإن كنا لا نبرر تقصيرهم في نشر العلم ، ومع ذلك فإن هذا الضعف العلمي تلاه في العصر الحديث نهضة علمية إسلامية طيبة ، ووجد من العلماء ما يذكرنا بعصر ازدهار العلم في القرون الأولى ، ومن عجائب القرآن أننا نجد في كل عصر من يستخرج منه فوائد جديدة لم تخطر علي بال السابقين ، وهذا من بركة هذه الامة .

رابعاً : وهي أمة مصطفاة لا تجتمع على ضلالة ، كما جاء عند عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : « إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة ويد الله على الجماعة ، ومن شذّ شذّ إلى النار ».

أما الأمم الأخرى فقد تجتمع على ضلالة كإجماع الأمم النصرانية على تحريف الكتاب وتبديله واختراع البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان والأمة الإسلامية إذا وقع فيها شيء من هذا الانحراف فستجد عشرات بل مئات من العلماء من يتصدون له ، منافحين عن نقاء الشريعة ، فهي من هذا الجانب - ورغم ما وقع فيها من الضعف والتفرق - من أعقل الأمم وأسلمها إذا ما قورنت بما تفعله الأمم الأخرى من سخافات وضلالات في حياتهم الخاصة والعامة ، والتقدم العلمي الذي أحرزه الغربيون لم يحصنهم من الوقوع في تخبط وصراع في حياتهم الاجتماعية والفكرية ، وما تفعله الأمم الوثنية أعجب وأعجب ، وإذا كان النقص قد وقع في القرون المتأخرة فلا شك أن القرون الأولى هي من خير الأمم كما ثبت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : « خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم

الذين يلونهم ».

وهذا الفضل في الدنيا له مثيل في الآخرة فإن أجر الأمة الإسلامية على الضعف مرتين من أجر الأمم الأخرى كما جاء عند عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو قائم على المنبر يقول : « إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا ، فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر فعجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين ، فقال أهل الكتابين : أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ، ونحن كنا أكثر عملاً قال الله عز وجل : « هل ظلمتكم من أجركم من شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فهو فضلي أوتيه من أشاء ».

هذه الخصائص لابد من ذكرها ، حتى لا نبخس الناس أشياءهم ، ففي غمرة السرد التاريخي قد يغمط أصحاب الفضل فضلهم ، وربما بدعوى عدم التحيز ، أو التظاهر بالحياد .

وإذا كانت هذه الخصائص تعطي بعض الضوء لفهم التاريخ الإسلامي ضمن الأطر العامة ، فإن المتأمل لهذا التاريخ سيجد أمامه أحداثاً هامة وظواهر خاصة هي معالم في طريق الباحث والدارس تساعد على فهم أعمق ووضوح أكثر وهو ما يأمله كل مسلم يبحث عن الماضي ليبني الحاضر والمستقبل .

مصادر أساسية لفهم التاريخ الإسلامي :

أولاً : القرآن الكريم :

القرآن من المصادر الأساسية في فهم وتعليل بعض أحداث السيرة النبوية كالغزوات الكبار مثل أحد وبدر والخندق وحنين وتبوك ، فقد شغلت غزوة أحد حيزاً كبيراً من سورة آل عمران ، وكذلك غزوة تبوك في سورة (براءة) .

كما يحدثنا القرآن وبصورة مفصلة عن نفسيات وأخلاق المشركين وأهل الكتاب وخاصة اليهود ، ولا يخفى ما لليهود والنصارى من دور في الأحداث العالمية ، ولا شك أن الذي يُخدع بهؤلاء لم يتمكن من فهم القرآن ، ولم يستوعب دروسه ، كما يحدثنا بشكل مفصل عن فئة قد توجد في كل عصر ويكون لها دورها في المجتمعات الإسلامية وهم المنافقون ، الذين يخربون من الداخل . هذه الفئة وصفها القرآن حتى كأن صورة كل منافق ترتسم أمامنا شاخصة تلوح ، وإن دراسة هذه الأصناف من البشر لهي جديرة أن تعطي للمؤرخ نظرة دقيقة ورحبة عما جرى ويجري من حوادث التاريخ .

ثانياً : السنة :

ورد في السنة أحاديث صحيحة تذكر أحداثاً ستقع أو تحذر المسلمين من أمور يجب عليهم ألا يفعلوها ، أو تصف عصراً بصفة معينة ، كل هذا يلقي أضواءً تعيننا على تحليل وفهم أحداث التاريخ الإسلامي .

1- روى أبو هريرة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : (هلكة أمتى على يدي غلمة من قريش) ، وكان أبو هريرة إذا روى هذا الحديث يتعوذ من سنة ستين فيقول : (اللهم لا تدركني سنة ستين) [2] والذي حكم سنة ستين هو يزيد بن معاوية ، وقد توفي أبو هريرة - رضي الله عنه - سنة تسع وخمسين ، والمراد بالأمة هنا أهل ذلك العصر ومَن قاربهم لا جميع الأمة إلى يوم القيامة.

وإذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحذر أمته رأفة بهم ورحمة فيصف بعض الأسر أو الأشخاص بما هم فيه فهذا لا يعني أن يوصف العصر كله أو الدولة بشكل عام بصفات سلبية ، ولكن نستطيع القول إن الحديث يصف واقعاً يساعد المؤرخ على الحكم الصحيح المعتدل فلا يغالي في المدح أو الذم والمنقصة .

2 - وصفت العصور الإسلامية الأولى بالإيجابية ، ولكن بشكل عام وليس تفصيلياً كما جاء في الحديث : (لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم تجتمع عليه الأمة ، كلهم من قريش ، ثم يكون الهرج).

وقد قال بعض العلماء : إن هذا العدد ليس من الضروري أن يكون متتابعاً ، بل الأغلب أنه يكون مفرقاً بين أكثر من دولة . وقد ذكر منهم ابن كثير : الخلفاء الأربعة وبعض ملوك بني أمية ، وبعض بني العباس ، ثم قال : والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث.

وناحية أخرى وهى أن كلمة (دين) قد ترد بمعنى الملك والسلطان ، أي أن سلطان المسلمين وقوتهم وملكهم لا يزال قوياً . كما جاء في حديث آخر : (تدور رحى الإسلام في خمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين ، فإن يهلكوا فسبيل من هلك وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عاماً . قلت : يا رسول الله ! ، مما مضى أو مما بقي ؟ ، قال : مما بقي).

قال الخطيب البغدادي - في شرح هذا الحديث - : (تدور رحى الإسلام) يريد أن هذه المدة إذا انتهت حدث في الإسلام أمر عظيم يخاف لذلك على أهله الهلاك - كأنه إشارة إلى انقضاء مدة الخلافة - قوله : يقم لهم دينهم : أي ملكهم

وسلطانهم ، ومنه قوله – تعالى – ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ [يوسف : 76].

3- حذر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– المسلمين من الفتن ، ودلهم على الطريق الأسلم فقال : « يهلك أمتي هذا الحي من قريش ، قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : لو أن الناس اعتزلوهم ». فإذا كان المقصود بالحي من قريش بعض ملوك الدولتين الأموية والعباسية الذين كانوا من الضعف أو السفاهة ما ينطبق عليه أنهم ضيعوا المسلمين في عصرهم ، فالرسول –صلى الله عليه وسلم– ينصح المسلمين باعتزال الفتن ؛ لأن هاتين الدولتين إسلاميتان رغم ما حصل فيهما من تقصير أو ظلم أو تشجيع لبعض البدع .

ثالثاً : العلماء :

هناك علماء لم يصرفوا جُل عنايتهم للتاريخ ، ولكن لهم آراء وتعليقات على بعض الأحداث ، أو نظرات عامة لبعض العصور والدول ، وآراؤهم هذه لها قيمة كبيرة ، لأنهم أشد الناس إنصافاً وتحرياً للحق . وليس لهم غرض عند الحكام أو المحكومين يقول الإمام أحمد بن حنبل – عن الذي يتوقف في خلافة علي (رضي الله عنه) ويقول : لا أدري هل كان الحق معه أو مع غيره ؟ ، ويظن أن هذا من شدة تحرّيه ، يقول عنه : (هو أضل من حمار أهله) ! .

ويقول ابن تيمية – موضحاً رأي أهل السنة في ملوك الدولتين الأموية والعباسية –:(ما قال أهل السنة أن الواحد من هؤلاء كان هو الذي تجب توليته وطاعته في كل ما أمر به ، بل كذا وقع ، فيقولون تولى هؤلاء وكان لهم سلطان وقدرة ؛ فانتظم لهم الأمر ، وأقاموا مقاصد الإمامة من الجهاد وإقامة الحج والجُمَع والأعياد وأمن السبل ولكن لا طاعة في معصية الله).

وعندما طعن العلماء في نسب العُبيديين الذين كانوا بمصر والذين تسموا (بالفاطميين) . وقالوا : ليس لهم أي صلة بنسب علي بن أبي طالب ، وأنهم مجوس ملحدون ، فهذا الطعن له أهمية كبيرة ، ويساعدنا على فهم تصرفات هذه الدولة .

فهؤلاء العلماء من أمثال أبي حامد الإسفراييني وأبو الحسن القدوري والبيضاوي وابن الأكفاني وغيرهم لا يمكن أن يشهدوا هذه الشهادة تقرباً وتملقاً للخليفة العباسي ببغداد ، كما يريد أن يصورهم البعض ، وهؤلاء أجلّ من أن يشهدوا زوراً من أجل الخليفة.

ويبدي ابن تيمية رأيه في خلفاء بني العباس من ناحية إقامتهم للصلوات فيقول : (وكان خلفاء بني العباس أحسن تعاهداً للصلوات في أوقاتها من بني

أمية). ويقول أيضاً ذاكراً بعض سلبيات الدولة العباسية : (وكان في أنصارها من أهل المشرق والأعاجم طوائف من الذين نعتهم النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث قال : (الفتنة ها هنا) وظهر حينئذ كثير من البدع وعرّبت أيضاً إذ ذاك طائفة من كتب الأعاجم ، وكان المهدي من خيار خلفاء بني العباس وأحسنهم إيماناً ؛ فصار يتتبع المنافقين الزنادقة).

ويقول أحد علماء المغرب المعاصرين - موضحاً حرص العباسيين الأوائل على نشر السنة : (ولما أراد بنو العباس نقل عاصمة الملك إلى بغداد لم يجدوا في العراق ما يكفي لنشر السنة إلا بأن أتوا من المدينة بعلماء مهدوا السبيل كربيعة بن أبي عبد الرحمن ويحيى بن سعيد وارتحل إليهم هشام بن عروة وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون ومحمد بن إسحاق ، ومن حينئذ بدأ ظهور السنة هناك).

رابعاً : علماء مؤرخون :

من أمثال الطبري وابن كثير والذهبي وابن الأثير والسخاوي ؛ فهؤلاء يجمعون بين علم الحديث والفقه من جهة والتاريخ والكتابة التاريخية من جهة أخرى. ولا شك أنهم مقدمون في توثيقهم للحدث التاريخي أو فهمهم له على المتخصصين في التاريخ الذين لا يهتمون إلا بجمع المادة التاريخية سواء كانت صحيحة أو غير صحيحة . فعندما يبدي ابن كثير رأيه في الحجاج بن يوسف ويقول عنه : (وقد كان ناصبياً يبغض علياً في هوى آل مروان ، وكان جباراً عنيداً ، مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة).

عندما نسمع هذا لا نلتفت إلى ما يحاوله بعض المعاصرين من الدفاع عن الحجاج دفاعاً بارداً ؛ فهو ظالم لا شك في ذلك ، وكلام ابن كثير هو الحق .

ويقول الذهبي عن أمير مصر - زمن الوليد بن عبد الملك - (قرة بن شريك) : (ظالم جبار ، عاتٍ فاسق ، مات بمصر بعد أن وليها سبعة أعوام).

وكيف يكون عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، مجدداً إذا لم يكن هذا الظلم قبله ؟ ! ، ويقول الذهبي أيضاً عن أبي مسلم الخراساني : (كان بلاءً عظيماً على عرب خراسان فإنه أبادهم بحد السيف).

وهؤلاء العلماء المؤرخون معتدلون منصفون يرجعون بالحق إلى نصابه إذا طاشت الكفة هنا أو هناك ، فغُلُوّ الروافض يقابله أحياناً غلو من جهلة أهل السنة ، وتأتي أقوال هؤلاء العلماء هي الحَكَم الفصل ، خاصة عندما يغلب على الناس قلة الإنصاف ، يقول ابن كثير - معلقاً على حديث (خلافة النبوة ثلاثون عاماً ثم يؤتي

الله ملكه من يشاء) – :(هذا الحديث فيه رد صريح على الروافض المنكرين لخلافة الثلاثة ، وعلى النواصب الذين ينكرون خلافة علي بن أبي طالب) .

ويقول الذهبى عن معاوية – رضي الله عنه – :(حسبك بمَن يؤمّره عمر ، ثم عثمان على إقليم – وهو ثغر – فيضبطه ويقوم به أتم قيام ، فيرضي الناس بسخائه وحلمه وإن كان بعضهم تألم مرة منه ، وكذلك فليكن الملك وإن كان غيره من أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خيراً منه وأفضل ، فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وقوة دهائه وله هنات وأمور والله الموعد).

خامساً : دارسو التاريخ :

وعلى رأسهم مؤسس علم الاجتماع وعالم نقد التاريخ عبد الرحمن بن خلدون الذي حاول في مقدمته المشهورة أن يضع الأسس التي تساعد المؤرخ على تفهم أحوال الدول وتقلباتها وأسباب اضمحلالها ، والمجتمعات وأسباب رقيها وانخفاضها ، وليس هذا موضع تفصيل نظريات ابن خلدون في مقدمته ولكن نضرب مثالاً واحداً للأسس التي وضعها لفهم حقائق التاريخ .

نبه ابن خلدون في مقدمته إلى ناحية مهمة جداً يذهل عنها أكثر الناس وهي تبدل أحوال الناس وتطورهم من حالة إلى حالة ، في كثير من العادات والتقاليد أو طريقة التفكير وتناولهم للأمور ، أي يجب أن نفهم طبيعة العصر الذي عاش فيه فلان أو قامت فيه الدولة الفلانية ، ولا نقيسه على عصرنا تماماً ، فالبيئة العلمية التي تكون في عصرٍ ما هي التي تساعد على ظهور علماء مجتهدين ، والذي يظن أنه يجب أن يكون بيننا الآن من أمثال هؤلاء العلماء دون أن يكون هناك بيئة علمية فهو واهم ، وقس على ذلك البيئة الجهادية التي بدأها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين والتي كان من نتائجها صلاح الدين الأيوبي .

الذي لا يتفطن لهذا يظن أن الأمور متشابهة من كل الوجوه . وقد يرى ما عليه الصحابة والتابعون من قيامهم بالأعمال الجليلة ، سواء في قيادة الجيوش أو التعليم ، فيظن أنه يمكن أن يتأتى له هذا دون تدريب وتعلم ، ولا يعلم أن العرب – لأول عهدهم بالرسالة – كانوا من صفاء الذهن والذكاء والفصاحة ما جعل هذه الأمور سهلة عليهم . فهم يعلمون طبيعة الناس والمجتمعات دون أن يدرسوا علم النفس وعلم الاجتماع مثلاً ، وقد يرى ما عليه بعض العلماء في العصور المتأخرة من التصنع في اللباس والهيئة فيظن أن العلماء السابقين كانوا هكذا .

يقول ابن خلدون :(من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام ، وهو داء دوي شديد الخفاء ، فلا

يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهـــل الخليقة . ومن هذا الباب ما يتوهمه المتصفحون لكتب التاريخ ، إذ سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب ، فتترامى بهم وساوس الهمم إلى مثل تلك الرتب ، يحسبون أن الشأن في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل ..) [المقدمة 1/320-323] ، كما أن الذي لا يتفطن إلى موضوع التطور البطيء يظن أن الأمور تنتقل فجأة من حال إلى حال ؛ لأنه يدرس المجتمعات كأنها (ساكنة) .

رابعاً: الغزو الفكري

- **العولمة**

هي إرادة الهيمنة والتسارع إلى إنشاء نظام عالمي جديد بواسطة ثلاثية (التكنولوجيا ، رأس المال ، الإدارة) شاملاً السياسة ،والاقتصاد ، والثقافة ، والاجتماع ، والأعراف ، لتأسيس القرية العالمية الجديدة التي تقوم على ثورة الكمبيوتر والاتصالات والثورة المعلوماتيـــة والأســـواق المفتوحـــة والشركات متعددة الجنسيات ، لتوحيد مصير الإنسانية .

مجالاتها وميادينها :

أولا: المجال الاقتصادي . ومن الوسائل المتبعة فيه :

1. صندوق النقد الدولي والبنك الدولي .
2. منظمة التجارة العالمية
3. الإعلام
4. الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات

ثانيا: المجال الاجتماعي . ومن الوسائل المتبعة فيه :

1. المؤتمرات الدولية في مجال المرأة والطفل والسكان
2. نقل السلوكيات والعادات الغربية من خلال الإعلام

ثالثا: المجال الفكري والثقافي . ومن الوسائل المتبعة في ذلك :

1. إصدار الاتفاقيات الدولية بوجهة نظر غربية علمانية وممارسة الضغط من أجل التوقيـــع عليها

2. إصدار القوانين من أجل استخدامها ضد دول العالم الثالث باسم حماية الأقليات .
3. إصدار التقارير الدورية كإ صدارات الكونجرس والخارجية الإمريكية عن حقوق الإنسان .

رابعا: المجال السياسي .

من خلال الهيمنة على الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن فيها ، والتأثير في قراراتها، واستخدام حق الفيتو.

خامساً : المجال العسكري .

وذلك من خلال الأحلاف والمعاهدات العسكرية التي تعقدها الدول الكبرى مع الصغرى ، وكذلك من خلال الأحلاف الإقليمية ، ومن خلال ما يسمى بحلف الأطلسي .

مخاطر العولمة :

خطر على المجتمع : بظهور الطبقية فيه .حيث يتكدس المال في يد قلة من الناس ، وتزداد البطالة بنسبة كبيرة .

خطر ثقافي : يتم صهر الثقافات في ثقافة واحدة هي الثقافة الغربية .

خطر أخلاقي : بانتشار الجنس والترويج له ، وحمايته ، والتجارة بجسد المرأة .

- **التنصير**

ويسميه دعاته بـــ(التبشير) والمقصود به الدعوة إلى النصرانية بين أوساط المسلمين .

أهدافه :

1. غزو الإسلام فكريا ودينيا واقتصاديا وعسكريا
2. التشكيك في حقيقة الإسلام والرسالة .
3. استغلال ضعاف الإيمان من المسلمين الدارسين في الغرب .
4. إيجاد عناصر الخلاف والشقاق بين المسلمين ، وإفساد الأنظمة ، وجعلها موالية للغرب
5. تسليط الكتّاب والأدباء وغيرهم في الغرب للكتابة عن الإسلام وتشويه صورته .
6. ترسيخ مبدأ فوقية الرجل الأبيض على بقية الشعوب ؛ من خلال التأكيد على علو النصرانية على جميع الأديان .

- **الاستشراق**

وهو اشتغال طائفة من الباحثين الغربيين بدراسة علوم الشرق وحضارته وأديانه .

وهي حركة ظاهرها العلم والبحث ، وباطنها المكر والخبث .

فالمستشرقون جزء من مخطط كبير للصهيونية الصليبية . يهدف إلى تخريج جيل من أبناء المسلمين لا يعرف من الإسلام إلا الشبهات .

وسائلهم في تحقيق أهدافهم :

1. تأليف الكتب وإصدار المجلات وإقامة المحاضرات عن الإسلام والقرآن والسنة والتاريخ والتراث .

2. إنشاء الجمعيات والمراكز التي تخدم أهدافهم
3. شراء عدد من الصحف المحلية في بلاد المسلمين .
4. عقد المؤتمرات لتمرير خططهم ، وإن كان ظاهرها البحث العلمي .
5. إنشاء موسوعة (دائرة المعارف الإسلامية) وهي من أخطر ماقاموا بـه ، حيـث أنهـا وللأسف مرجع لكثير من المثقفين مع ما فيها من خلط وجهل وتحريـف ضـد الإسـلام والمسلمين .
6. إرسال البعثات إلى البلاد الإسلامية باسم العلم والخدمات الإنسانية .

ممن سار في ركاب المستشرقين من العرب :

فمن نصارى العرب : لويس عوض ، وجرجي زيدان ، وسلامة موسى

وممن يحمل اسم الإسلام : طه حسين ، وعلي عبد الرازق ، وزكي نجيب محمود ، وحـسين فوزي ،

- **العلمانية :**

هي في اصطلاح الغربيين تعني : فصل الدين عن شؤون الحياة ، وعزله في الضمير وفي الكنيسة. وهي في مفهوم الإسلام تعد مفهوما جاهليا ، لأنها تعني عزل الدين عن شؤون الحياة .

وأساس فكرتها :

التأثر الحاصل عند رجالات الغرب في نهاية القرن العاشر الميلادي حين كانوا يبتعثون لتلقي العلوم في جامعات الأندلس الإسلامية فتأثرت أفكارهم بالعقلية الإسلامية المستنيرة ، وعرفوا زيف الكنيسة ودجلها وتسلطها على العباد، فثاروا على الكنيسة التي هي عندهم رمز الدين ، حيث كانت تحارب كل مامن شأنه إظهار العلم والكشوفات ونحوها ، واستمر الصراع بين الكنيسة ورجال العلم هؤلاء فترة من الزمن حتى انتهى بانتصارهم على الكنيسة أثناء الثورة الفرنسية .

ثم غزت العلمانية العالم الإسلامي في بداية القرن العشرين على أنقاض الخلافة العثمانية .

ومما ساعد ظهورها في العالم الإسلامي :

1. الانحراف العقدي لدى كثير من المسلمين وانتشار البدع .
2. الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي
3. الأقليات غير المسلمة .
4. تقدم الغرب الهائل في مضمار العلم المادي والقوة العسكرية .
5. تمكن عملاء الغرب من الحكم والسلطة في كثير من بلاد المسلمين .

أبرز المظاهر العلمانية في العالم الإسلامي :

1. العلمانية في تركيا

حيث قامت على أنقاض الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال أتاتورك ، وحاربت الإسلام على النحو التالي :

- إلغاء الخلافة الإسلامية
- محاربة المظاهر الإسلامية
- محاربة اللغة العربية ، والإلزام باللغة التركية
- إلغاء الشعائر الإسلامية : كالأذان ، والصلاة جماعة ، وقراءة القرآن ، ولبس العمامة.

2. العلمانية في مصر

حيث برز دعاة إليها إبان الاحتلال البريطاني في كثير من جوانب الحياة أمثال :

- قاسم أمين في الجانب الأخلاقي والأسري
- طه حسين في الجانب الثقافي والفكري
- علي عبد الرازق في الجانب السياسي والتشريعي

وعلى الرغم من قوة هذا التيار إلا أنه لم يكن ذا تأثير على الشعب المصري إلا بعد الثورة التي قادها جمال عبد الناصر عام 1952م التي تبنت العلمانية واتخذت خطوات في سبيل إنجاح هذه الثورة ومنها :

- الإشادة بالقومية العربية كبديل عن الوحدة الإسلامية
- تبني الاشتراكية كنظام اقتصادي بديلا عن النظام الاقتصادي الإسلامي
- إحلال بدائل ثقافية وفكرية وعقائدية للشعب المصري كالفرعونية ونحوها .
- صرف الأمة عن الجهاد في سبيل الله إلى النضال في سبيل القومية والاشتراكية والحرية والعروبة .
- تصدير هذه الثورة بتعاليمها إلى بقية الدول العربية في العالم الثالث .

وكلمة أخيرة في حكم الإسلام في العلمانية :

إذا عرفنا أن العلمانية تعني فصل الدين عن الدولة والحياة في الجانب التشريعي

وتعني الإلحاد والتنكر للدين في الجانب العقدي

وتعني الفوضى وإشاعة الفاحشة والشذوذ والاستهانة بالفضيلة في الجانب الأخلاقي .

فهذا كله يعتبره الإسلام ضلال مبين وفساد في الأرض وتنحية لشرع الله ، وهذه هي مظاهر الكفر بالله سبحانه ، لا يقبل الله منهم حتى يرجعوا إلى دينهم .

انتهى .